الفصل الثالث
فضل الوقف

٣٠ - انبثقت فكرة الوقف من الأخلاق الإسلامية، ونبعت من الضمائر الإنسانية، حتى صار الوقف ميزة من ميزات نظامه العام، وسمة من سماته الأساسية، وقاعدة من قواعده الاجتماعية التي أثرت في عمارة وحضارة البلاد الإسلامية.

والوقف من أعظم سبل الخير، ومن أنفع طرق البر، فكان سببا في تشييد الجوامع والمساجد، والكتاتيب والمدارس، وتنوير المنارات والفنارات، وتحصيل العلوم والمعارف، وتحفيظ القرآن الكريم، وتدريس العلوم الشرعية، وتوصيل الخير والنفع لطبقات الموقوف عليهم.

والوقف يستهدف فائدة الجميع، وكان له دور أساسي في إقامة المؤسسات الاجتماعية في العالم الإسلامي على مر الأحقاب، فكان مصدرا للخيرات، ومنبعا غزيرا يفيض بالبر والبركات.

فكم عصم أسرا كثيرة، وبيوتا عديدة من ويلات الشقاء، وغوائل الفاقة، وآلام الجوع، ومرارة الحرمان، وكم حمى أفرادا وجماعات من البؤس والفقر والتشرد والتسول، وأنقذهم من المرض والموت، بعد أن كان الحزن يلازمهم، والبؤس يطاردهم، وبعد أن كانت قلوبهم مضطربة، ونفوسهم منكسرة، وكانت بيوتهم خاوية كالقبور الموحشة المقفرة.

٣١ - وقد أسعف الوقف طوائف المنكوبين والمكروبين والمضغوطين والمكظومين والمطحونين والمحرومين والمسحوقين والغارقين في خضم الحياة، الذين عضهم الجوع بأنيابه، وأناخ عليهم بكلكله، وضاق بهم العيش، واستحكم الضنك عليهم، وتفاقمت الخطوب والأهوال عليهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

وقد ساهم الوقف في إشباع حاجات كثير من الأسر المحتاجة من غير إهانة، وسد خلة عائلات مستورة عديدة تستحق العطاء، دون النيل من عزها، أو المساس بكرامتها.

فكم من فقير معدم منعته العفة من ذل السؤال، قال الله تعالى: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم ٢٧٣.

٣٢ – ومنذ تاريخ الإسلام المديد ومؤسسات الأوقاف تسعى دائما لعمل الخير والبر، وتنمية المجتمع، وإشاعة روح البذل والسخاء بين أبناء الأمة الوسط، وتقود خطاهم إلى فعل الخير، وتأخذ بأيديهم إلى ساحات التعايش والتعاون، وإلى باحات التكافل والتآزر، وتدلهم على منابع العرف والإحسان، وتبعث في نفوسهم المعاني السامية عن طريق الوقف وحبس العقارات والمنقولات على كل ما يخطر بالبال من طرق تقدم الإنسانية، ووسائل الرقي والمدنية[1].

٣٣ – وقد وقف الناس أموالهم على وجوه البر والخيرات، وانتشرت الأحباس في جل العصور الإسلامية وسائر البلاد. وتعددت نوعية الأحباس، فوجدت أوقاف عقارات، مثل: الدور والعمارات والأرض والأطيان الزراعية.

ووجدت أوقاف منقولات، مثل: الماعون والأثاث وآلات الصناعة، ودوزان نحاس وفخار تركي وصيني وجرار وخوابي، وفراش وغطاء وأسرة، وصناديق، ومرافع، وآلات لصناعة السروج، والماعون المعد للاستعمال، سواء أكان من نحاس أو عود أو فخار، وآلات الحرب على المجاهدين.

ومن الأوقاف المنقولة: حبس القلة، وهي: وحدة كيل الزيت، وأصغر منها الصاع، وأكبر منها المطر.

٣٤ – ويعين الواقف وجها من أوجه البر الكثيرة، وبعض الواقفين يقف إنشاء لوجه الله تعالى ويخصون بذلك أشخاصا يعينونهم، مثل: تحبيس بعضهم على أولاد أخيه مع وجود أبناء له.

وفكر كثير من الموسرين في أوضاع الفقراء والمساكين والضعفاء والمحتاجين فوقفوا عليهم، تخفيفا لما يقاسونه من ويلات البؤس، وخاصة في سني القحط والمجاعات.

وأكثر عقود الوقف المهتمة بالفقراء كانت تشرك معهم غيرهم، كالبنات الأبكار اليتيمات أو الفقيرات، بما يوفر لهن الشوار "الجهاز".

ووقف الناس مبالغ من المال تصرف سنويا على ختان الصبية الفقراء، ويراعون في ذلك كسوتهم المكونة من شاشية وقميص وصدرية ونعل مع أجر الخاتن. وعلى العميان، وعلى إفطار الصائمين،

---

(١) انظر: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي – طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م، ج١، ص ١٧ ــ ٢٠.

فكان شهر رمضان يعد مناسبة دينية يحتفلون به ويتقربون فيه إلى الله تعالى بإجراء الصدقات.

ووقف الناس الموسرون على التكايا التي يتلقى فيها المحتاجون طعامهم ويسكنون فيها، وكان منهم من يتلقون طعامهم ولا يسكنون؛ لأن مروءتهم تمنعهم من ذلك، وكان يوسع على هؤلاء الفقراء في شهر رمضان والمواسم والأعياد.

وقد عالج الموسرون مشكلة ماء الشرب، فوقفوا على السقايات والفسقيات والسبل.

واعتنى الموسرون بالتطبيب، فوقفوا أموالهم على المارستانات (البيمارستانات) للإنفاق منها على التطبيب والنظافة والمأكل، والقيام بعمليات الختان، وإيواء المرضى.

ومن وجوه البر التي وقف المسلمون أموالهم عليها: أوقاف أكفان الفقراء ومايحتاج إليه الغرباء من كفن ودفن وغير ذلك.

كما وقف الناس أموالهم على التعليم، واهتموا بالمعلم والمتعلم ومكان التعليم، وقد أنشئت كثير من الكتاتيب، وبنيت مدارس عديدة أحريت عليها أوقاف كثيرة وأملاك شاسعة. وكانت بعض المدارس توزع على الطلبة كباشا في عيد الأضحى.

ومن وجوه الخير كذلك التي وقف عليها الموسرون أموالهم: القضاء والإفتاء، فكانت لهم أوقاف ينتفعون بها، فإذا نقصت هذه الأوقاف عن الوفاء بحاجاتهم وجراياتهم، وضاقت برواتبهم المعينة، كلفت الحكومة تلجأ إلى أوقاف أخرى لسد النقص الحاصل في المرتبات، بل وكانت تبني منها المحاكم وتقوم بتأثيثها منها.

ومن وجوه البر كذلك التي وقف المسلمون عليها أموالهم: بناء السجون، والإنفاق على المسجونين واحتياجاتهم، والصرف على طعامهم في شهر رمضان.

ومن وجوه الخير كذلك التي وقف عليها المسلمون أموالهم ابتغاء الأجر والثواب: الزوايا التي كانت تعمل على توفير الإقامة للطلبة، وعلى إطعام المساكين وعابري السبيل.

كما اهتم الواقفون ببيوت الله ؛ من مساجد وجوامع، فحبسوا على إصلاحها وتحصيرها واستصباحها، ووقفوا على القائمين عليها من أئمة ومؤذنين وميضاوين وغيرهم.

وكان لبعض الجوامع أئمة متعددون.

وكثيرا ما يجمع الواقفون المؤذنين والميضاويين والسقائين وغيرهم في حبس واحد. وقد يخصون بعض هذه الفئات بزيادة العطاء، كمؤذني المغرب أو قائمي الليل.

وكان الناس يقفون على الإنفاق على لوازم ختم القرآن وختم صحيح البخاري.

كما كان الناس يقفون أموالهم على المجاهدين والغازين في سبيل الله عز وجل برا وبحرا، وعلى الفنارات التي خصصت لهداية البحارة.

ووقف الموسرون على الأسوار والأبراج وعلى الثكنات وعلى العسكر والرباط.

ووقف الموسرون كذلك على الحرم المكي والحرم المدني، وعلى آمين البيت الحرام لأداء فريضة الحج، فكان ينفق من الأوقاف على طعام وشراب الحجيج المارين من البلد، وعلى الطريق الصحراوي الذي تسلكه قوافل الحجيج.

وكانت الحكومة تجمع أموال الوقف، وتشرف على إرسالها سنويا لمستحقيها، كي توزع عليهم عند الحج، وتسمى: "الصرة"[1].

ووقف كثير من الموسرين - حكاما ومحكومين - على أولادهم وعلى بناتهم وعلى إمائهم المستولدات، وعلى سائر الأغراض الدينية والاجتماعية والثقافية والعسكرية.

٣٥ - من هذا يبين أن أبناء الأمة الإسلامية نهضوا نهضة شعبية عظمى، تمثلت في وقف أشياء مختلفة مالية وعينية على وجوه الخير والبر، تنفق من أجل نشر الدعوة، وتشييد الجوامع والمساجد، والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، والعلاج، والتعليم، وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه، وإغاثة الملهوفين، ومساعدة الفقراء والمساكين، ومؤازرة المعوزين والمحتاجين، الذين يعيشون في البؤس الدفين الصامت الذي يستعين على ضحاياه بكبرياء نفوسهم، فيمنعهم الأنين والشكوى، ويسلبهم الحس والحركة، حتى يستوفوا أجلهم المحتوم، فيذهب بهم ريب المنون، وهم في ألم الفقر، ووحشة الفاقة والحرمان[2].

---

(١) انظر: الوقف في العالم الإسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية، تقديم: راندي ديغليم، مقدمة: أندريه ريمون. الذي أصدره المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٩٥م، ص١٠ ومابعدها.

(٢) انظر: محمد بن عبد العزيز بنعبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي ــ طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م، ج١، ص ٢٠.